رب القيامة

«لأنه تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته ، فيخرج الذين فعلوا الصالحات الى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات الى قيامة الدينونة »

(يوحنا 5::28)

للدكتور د. و. تالمدج

(١٨٣٢ - ١٩٠٢)

كما كان الانسان يرى الجموع تتقاطر الى كنيسة بيتشر قبل تالمدج هكذا في الحقبة التالية كانت كنيسة «بروكلين تابرناكل» في أيام تالمدج . كانت عظاته تطبع أسبوعيا في نحو ٣٦٠٠ جريدة توزع في كل أرجاء الولايات المتحدة ، بل في كل الشعوب الناطقة بالانجليزية . واذا ما ذهب لالقاء عظة في بلد من البلاد كانت الحكومة تسير قطارات خاصة لتلك الجهة لشدة الإقبال عليه .

ولد في بوندبروك من أعمال نيوجرسي في 7 يناير سنة ١٨٣٢ . وكان محا ضرا من الطراز الأول ، كما كان خطيبا متفننا في الخطابة يصور حقائق الانجيل البسيطة بأسلوب أخاذ ولغة فصيحة مزركشة بأمثال عديدة .

ولقد روى أحد المرسلين الأمريكان أنه شاهد هذا الواعظ الموهوب في أحد المجامع وكان الناس مشدوهين لقدرته على وصف أهوال الجحيم ، حتى تحطم كثير من المقاعد لكثرة تشبث الجالسين عليها لئلا ينحدروا إلى هاوية الهلاك . وقد توفي في سنة ١٩٠٢ في مدينة واشنطون .

شوكة الموت

لقد هامت الظنون الفلسفية على وجهها وادعت أنها ذهبت الى السماء ثم أخبرتنا أنه لا يوجد هناك ذهب ، وذهبت الى جهنم وأخبرتنا أنه لا توجد هناك نار ، والى المسيح وأخبرتنا أنه لا يوجد هناك إله ، والى القبر وأخبرتنا أنه لا توجد هناك قيامة ، ثم أسدلت حجابا كثيفا على المستقبل وضبابا من الريب لا يعدله إلا ضباب لندن.

لو تقدمت اليك لتذكر لي أسماء أعظم فاتحي العالم لأجبت : قيصر ، والاسكندر الأكبر، وفيليب المقدوني ، ونابليون الأول . لكنك قد نسيت أشدهم بأسا وأوسعهم سلطانا . ان جميع من ذكرت ليتضاءلون أمام ذاك الذي ركب على فرس أسود وجلس صائلا في ميدان «واترلو» ، و «آتلانتا» وداست سنابك فرسه المغموسة بالدم على حطام القلوب الممزقة وشفاف الأفئدة الملكومة . نعم لأنه دوخ كل بر وحاصر كل مدينة ، واليوم تئن تحت وطأة طغيانه باريس ولندن وسان بطرسبرج (لنينجراد) ونيويورك وبروكايهن.

وذلك الفاتح هو الموت الذي يحمل علما أسود ، لكنه لا يحتفظ بأسرى . أجل ، انه يحفر حفرة كبيرة كخندق دائري حول الكرة الأرضية ثم يملأها بجثث القتلى . ولو لم يقابل الله عمله هذا بخلق أناس جدد لأصبحت الأرض تدور في الهواء فارغة ، ليس فيها من رِجل تدب فتعمر المدن ، ولا قلب ينبض فيغمر وجه الدنيا إشراقا و سرورا . وهكذا كان العالم يصبح قفرا يبابا ، وسفينة بلا ربان يجلس عند الدفة ، ولا بحار على ظهرها ، ولا نوتي في المؤخرة . قديما قتل هيرودس الأطفال من ابن سنتين فما دون ، لكن هذا المارد استل سيفه وطعن به كل الاعمار . جنگيز خان ارسل خمسة ملايين تحت أطباق الثرى ، لكن هذا اللعين ابتلع مئات الوف الملايين .

يتقهقر بعض النمارذة فيردون أسلابا نهبوها ، لكن هذا الطاغية لا يتنازل مثقال ذرة عما غنم . فيا له من جبار قاس ! ويا له من ملك أهوال تقطر يداه بالدم ! قصره قبر كبير ، وزهوره باقات ذابلة على أغطية الأكفان ، وموسيقاه نحيب عائلات مهدمة ،

وكأس وليمته جمجمة مهرأة ، ونافوراته قطرات من دموع الباكين . أجل ، ان ذلك العرش سيهوى، وذلك الصولجان سيتحطم، وذلك القصر سيسقط متهدما ،« لأنه تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة ».

قيامة الأموات

لقد فكر فلاسفة الوثنية في خلود الروح ، لكنهم لم يحلموا أبدا أن الجسد سيقوم ويتصل بها ، اذ ان هذا من وحي الكتاب فلن تصل اليه مداركهم . وفي الواقع ان كل تشبيه من عالمنا الطبيعي لا يفي بالغرض المقصود اذا قارناه بالقيامة . فتقول مثلا : توضع حبة الحنطة في الأرض فتنبت نبتا جديدا هكذا سيكون الحال مع أجسادنا، فأجيبك : قد تموت الحبة فلا تنبت إطلاقا كأن يؤثر عليها طقس بارد مثلا وهنا يقصر التشبيه . تقول لي ان الدودة تتغير فتصبح فراشة جميلة وهكذا في القيامة تتخذ أجسادنا شكلا جميلا ، أجيبك : لا توجد فترة انقطاع حياة بين الدودة والفراشة - وهنا يقصر التشبيه مرة اخرى . تقول : لا بل اهتديت الى تشبيه اكثر انطباقا في حياة الشجرة إبان فصل الربيع ، فأجيبك أن الشجرة لم تمت في فصل الشتاء ولكانها نامت فقط ثم استيقظت عند إقبال الربيع وهنا يقصر التشبيه مرة أخرى . لأنه حتى ان مزق الجسد مشرط الجراح ، أو احترق في أتون النار ، فسيأتي يوم يقوم مجتمعا وهذا ما لا تهتدى إلى حله عقول الفهماء على تقدم العلم .

بل كلما تقدم العلم ازداد هذا السر غموضا ، لأن الكمية المتحولة إلى تراب من الجسم ان هي إلا نسبة ضئيلة إذا قيست بحجمه . بل ذلك العنصر الأرضي فيه كمية قليلة اذا قيست بالنسب الكبيرة فيه من سوائل وغازات تتجزأ وتنعزل تاركة النذر اليسير للتراب ، فيغدو الجسم نهبا مقسما بين الأرض والأثير . وهنا يقف الكيميائي وقفة الحائر اذا ما سألته : كيف تتجمع هذه العناصر مرة أخرى ؟ لكن في حين أنه توجد أشياء كثيرة فوق فكرنا في هذا الصدد لكن ليس شيء منها مناقضا للعقل .

يأتي الى معترض ويقول : رجل ذهب إلى حرب المكسيك فقطعت رجله ، وأتي الى نيويورك وفي حادثة اخرى فقد اصبعا ، ثم ذهب إلى الصين في إرسالية وهناك مات ، فهل تأتي الرجل من المكسيك والأصبع من نيويورك وتتحد بالجسم المدفون في الصين ؟ فأجيب ان الله الذي لا يعسر عليه ما هو أعظم من هذا ، في مقدوره أن يجرى امرا كهذا، لأن جسمك مكون من كل مناطق الأرض ، فهو خليط من زبيب ايطاليا ، وموز فلوريدا ، وطير البراري ، وسكر جاوة ، وبن البرازيل ، وشاى سيلان ، وفاكهة كندا، بل ان كل بقعة من هذه أصبحت جزءا في جسمك .

فيقول المعترض مرة أخرى :« هب أن إنساناً من أكلة لحوم البشر اكل آخر ، كيف يقوم جسمه ؟». فأجيب أنه لا يوجد دليل بأن الجزء الترابي في الجسم البشري يضيع في جسم آخر. بل إن لله قدرة على أن يحفظ هاذين الجسمين متميزين . بل هب أن جسما امتص جسما آخر أفليس الله قادرا أن يخرج هذا من ذاك ؟

لكن دعنا نترك هذا وتعال أحدثك حديثا آخر . وقفت مرة في صبح مشرق على قمة جبال كاتسكيل ، وفوق قمة الجبل تلألأ تاج من الذهب النضار ، بينما كان يرى ما في الوادي من تحت سحاب متهاد متشابك متكاثف . وبعد برهة انطلقت سهام النورمن كبد السماء ، فبدأت تقلع أوتاد خيمة الظلام في ذلك الوادي وذهب الضباب يتعثر هنا وهناك ، ثم أسرع كراكب فرس أعطى لجامه للريح . بعدئذ انكشف الغطاء عن الضباب واندفع هافاً على اجنحة الريح ، فتألق الوداى بأسره ولمع بسناء باهر ، فكأن هنالك خيلا من نار ومركبات من نار وعروشا من نار وحفيف أجنحة ملائكة من نار . ورويدا انقشع الظلام بلا صوت بوق أو صريف عجلات . فطلعت الوديان بخضرتها الزاهية وتلألأت الأنوار على هدسون باشراقها ، وظهرت القطعان الجميلة من القرى المجاورة رابضة في المراعي النضيرة ، وبدت حقول الحنطة كبساط من السندس الأخضر ، وظهر مهد الوادي اللين المتلألىء نامت فيه تلك الدولة الفضة نوما لذيذا . لقد انعقدت على كل المقابر والرموس في الجبال المتحجرة ظلمة لا تستطيع مصابيح الأرض مجتمعة أن تطاردها ، لكن قد سطع من فوق نور شمس البر فبدد ظلام

الريب ، وانقشع الضباب امام نور الرجاء فوقفت وديان الموتى في بهاء مجد القيامة الصبوح.

بوق الهتاف

توجد أسانيد كتابية متعددة تعرفنا أن مهمة كسر القبور ستبدأ بضرب البوق وصوت الهتاف ، ومنها يتبين لنا أن أول بشائر اليوم ستكون صوتا من السماء لم يسمع نظيره. قد لا يكون عاليا، لكنه سيكون داويا . كم من قبور نحتت في جوف الأرض وخيم السكوت العميق على ذويها من اليوم الذي سكنته . هناك في أحشاء بحور المرجان التي تمتد في العمق أميالا حيث استقرت جثث الغرقي سيدوى ذلك الصوت فلا يخطئه أحد ، وسيسمعه العدد العديد من الملايين ، أولئك الذين أعمل فيهم البلي ، فسيندفعون من أبواب الأبدية طائرين نحو القبر صائحين : أفسح الطريق أيها القبر ، وها رد إلينا أجسادنا . لقد أعطيناك إياها في فساد فأعدها في عدم فساد .

الوف الأجساد تنهض من ميادين واترلو ومن بين صخور جتسبرج ومن ممرات جبال الجنوب . هناك مائة ألف يزدحمون في مقابر جرينوود . وهناك عند ذياك القبر تتقابل ثلاثة ارواح لأن ثلاثة أجسام رقدت فيه . وهناك في تلك المقبرة الأخرى تحلق عشرون روحا لأن عشرين جثة هجعت هناك . ومن نيويورك إلى ليفربول في كل بضعة أميال على ذلك الطريق المائي تنزل مجموعات من مئات الأرواح تقابل أجسادها الغارقة في البحر الخضم . هيا انظروا إلى ذلك الجمع الحاشد ! هناك حيث غرقت الباخرة «سنترال أميريكان». وذلك الجمع الآخر ما هو ؟ هو حيث غاصت في اليم الباخرة «باسيفيك». وذياك الجمع الآخر ؟ حيث أطبقت الأمواج على « سيتي أوف بوسطون ». وذلك حيث ابتلع المحيط الباخرة «بريزيدانت». وتلك الروح الهائمة منفردة لماذا أراها تستقر على ذلك الوادي المنعزل ؟ لأنه هناك هلك مسافر وسط الثلوج الباردة . ان الهواء كله يموج بالأرواح - أرواح تحلق الى الشمال وأخرى ناحية الغرب . فرقعة فاذا ويستمنستر تتقوض أركان مقابرها فيهب الموتى - ملوك وخطباء وشعراء - خليط مدهش من الأرواح تهب باحثة بين الأطلال . ولبرفورس

الطيب واليزابث القاسية . فرقعة فإذا بالأهرام تهوى ويهب ملوك مصر من جوف الصحراء . فرقعة واذا المقابر المبنية على الطراز العصري تهوى . عندئذ تبدو مقابر الدنيا كأنما قد صارت حقلا جازت عليها سكة المحراث فشققت أتلامها . ملوك الأرض ، قضاتها ، وعظماؤها ، أغنياؤها المترفون وشحاذوها البائسون ، جيوشها - الغالبة والمغلوبة ـ البرابرة والمتمدينون ، الذين قطعت رقابهم على المقاصل، ومن ذهبوا وقوداً للنار ، ومن تعفنت أجسادهم في غياهب السجون ، والأطفال أولاد يوم ، والمعمرون ، الكل بلا استثناء ، لا يترك واحد منهم.

أخبرني أحد الأطباء أنه بعد موقعة «بول رن» كان يبتر الأعضاء ويرميها من النافذة لكثرة عدد الجرحى ، فتكدست الأشلاء كومة حتى وصلت إلى الشباك . كل هذه البقايا ستأخذ مكانها في الأجساد. أولئك الذين ولدوا ولم تكتحل بنعمة النور أبصارهم ، ستكون لهم عيون أشعل سراجها نور السماء . والعرج ستعود اليهم أرجلهم . وفي كل جموع القائمين لا ترى عينا انطفأ نورها ، أو رجلا يخمع صاحبها ، أو يدا يابسة ، أو لسانا عقدته اللكنة ، أو أذنا صماء لكن في أية حالة ستكون أجسادنا ؟ أجساد الأبرار ستكون في حالة مجد لا نقدر على وصفه لأن أقرب الأجساد إلى الكمال إن هو إلا هيكل عظمى بالنسبة للجسد الذي كان للإنسان قبل دخول الخطية إلى العالم . فنموذج الله للوجه واليد والقدم والجسد هذه لا نعلم عنها شيئا الآن . اذا أتيت إلى قطعة رائعة من قطع الفن صبت في قالب تمثال بديع ومسكت الأزميل واخذت تشذب هنا وهنالك وتقطع من هنا ومن هناك فانك تذهب بروعة القطعة وتشوهها. وهكذا الحال مع أجسادنا التي شوهتها ألوف السنين الماضية والعيوب الجسمانية التي تداولتها الأجيال في خلال الستة آلاف سنة الماضية فأورثتنا كل العيوب والتشويهات .

قيامة الأبرار

اجل ، أنه عندما يقيم الله الأبرار من قبورهم يشكلهم شكل آخر ويزينهم وفق النموذج الأصلي بحيث لا يبقى مجال للمقارنة بين أجسادنا الضعيفة وأجسادنا الممجدة . حينئذ نرى العين المكملة وقد اغتسلت بمياه القيامة فلا يبقى فيها أثر لدموع الموت أو التعب

. ثم ترى اليد المكملة لا تقبض فيما بعد على التعب والعناء . لا تنوء أكتافنا بأعباء السنين ، ولا تحني ظهورنا بأثقال الحياة فيما بعد بل رشاقة وشباب . أن ما يجتذب العين في هذه الأرض هو الوجه البشري ، ولكنه الآن محجوب وراء ألف بر قع من براقع الأحزان . لكن في صبح القيامة يرفع الله البرقع . وأقول متجاسرا أن السماء في خدرها ستخجل من طلعة وجه الأبرار المخلصين وقد أشرق على وجوههم المجد المتلألىء . وحينما تتحول تلك الوجوه لتنظر نحو الأبواب والعرش سيكون فجر صباح جديد استقر في حضن النهار الأبدي . ثم سيكون الجسد خالدا .

هنا يلازمنا التغيير والتبديل حتى ان الضعف يسير مع أجسادنا جنبا إلى جنب. ونحن في حاجة إلى الاعتماد على الطعام والشراب لتبقى خصاصة لحياتنا وان انقطعت هذه الموارد هوينا . والمرض والموت يتعقباننا وهما دائما في نضال مستمر مع هذا الساكن بالأجرة ليخرجاه من مسكنه . ولأقل لطمة نخر على حافة الموت . لكن في القيامة ستكون لنا أجساد خالدة . لا يلصق بها مرض . لا تسمع لها كحة أو أنة . لا تكون حمى أو وبأ في الجو . لا مزالق تحدرنا ولا اذي يعض بنواجزه على أعضائنا . هنا يعبر الناس البحار التجاءً للصحة ، ولكن الرحلة عبر بحر الموت ستكون شفاء أبدية للعليل الراحل. هناك على ذلك التل يطلع نبات ترعرع في أوراقه ترياق الشفاء من لدغة ثعابين الدنيا .لا مستشفى ، ولا مصحة ، ولا أدوية ، ولا نقالة ، ولا كرسي علاج ، ولا عقاقير ، ولا رفائد، ولا نظارات ، ولا عيون ضعيفة هناك ، ولا نوافذ تقفل لمنع الرطوبة ، ولكن صحة خالدة للأبرار القائمين .

أيضا سيكون هذا الجسد قويا . هنا اذا مشينا عشرة أميال نشعر بالتعب ، واذا رفعنا مئات قليلة من الأرطال نلهث لشدة التعب . واذا ما تقابلنا مع وحش ضار - ونحن عزل من السلاح - نركض أو نرتقي شجرة أو نتحايل بأي طريقة الخلاص . ثمانى ساعات نزاول فيها عملا ما تشعرنا بالتعب .

اجل ان الجسد القائم من الأموات سيكون قويا . هناك سيكون ربيع الشباب الأبدي في المدينة الأبدية ، حيث اشراق مجد النهار الذي لا يعقبه ليل . هناك لا يحتاجون إلى الراحة ليلا أو نهارا لأنهم استوطنوا مقر السعادة والراحة . نعم ، لهم غلبات كثيرة

ليحرزوا ، وترنيمات جديدة ليرنموا ، وأيام سعيدة ليقضوا . لا يحتاجون إلى الليل لأن عيونهم لا تكل ، ولا يحتاجون إلى نوم لأنه لا حاجة إلى تجديد قواهم . إذا ما جلسوا تحت ظلال شجرة الحياة فليس ليستريحوا ، بل ليقصوا مع زميل آخر قصص الأيام الغابرة ويعيدوا احاديث المواقع التي حاربوا فيها معا كتفا إلى كتف . لقد صارع يعقوب مع الملاك فلم يشأ أن يهزمه ، لكن حينما يقوم يعقوب جسدا ممجدا لا يقوى ملاك على طرحه . لا يكون هناك ما يدعى مصارعة الجبابرة في السماء لأنهم سيكونون أشداء أقوياء خالدين .

نوع الجسد الذي تتوقع . يوجد من الأعمال ما يستنفد كل وقتي بحيث لا أهتم للوقت الذي أقطعه في النوم أو اصرفه في نزهة. وكثيرا ما تخالجني أفكار عن العمل المجيد بالكرازة بالإنجيل حتى لأتمنى أن يكون من أول يوم في يناير لغاية آخر يوم في ديسمبر أنادى للناس عن المسيح والسماء بدون توقف لتناول الطعام أو النوم أو الراحة . شكرا لله من أجل الرجاء الذي نتمسك به لقيامة أفضل ونشاط وخدمة محبة لا توقف فيها ولا انتهاء . يالـه من يوم القيامة السعيد ! اني القى في القبر ، والسرور يملا وجداني ، هذا الهيكل الضعيف الخاطي مستبدل به جسدا طهورا وخالدا مجيدا لا تمسه يد التعب . حينما دفنوا ابي كانوا يرنمون الترنيمة عن القيامة التي جاء فيها :« هكذا رقد يسوع ابن الله عابرا بالموت أرجاء القبر فقد ذلك الموضع . استرح ههنا أيها القدس المبارك حتى يطلع الصبح من عرشه فيمزق حجاب الظلمة من حولك .

لكنني أجد في الآية شيئا عن قيامة الدينونة . والكتاب يتكلم قليلا عنها ، لكن مع الترجيح أن الأشرار سيكون لهم أجساد معذبة بالقياس مع أجساد الأبرار الممجدة . واني أتصور السكير خارجا من قبره والتشويه في جسده يزيد دمامة خلقه، وكأني بلسانه الناشف يتمنى الخمر التي لن يحصل عليها اذ لا توجد في جهنم حانات. وهنالك يخرج النجس التعيس يترنح في نجاسته ويتلوى في طرقات المقابر وعيون الأبالسة ترمقه بنظرات الازدراء. وهناك سجن ووجوه الأموات غير المغفورة خطاياهم . آخر لمحة من الجمال محطمة ، والبصر زائغ ، والعين تنم عن خبث الطوية والشراسة ، النظرات فيها شراهة الجحيم ، والوجنتان محمرتان بنار السعير ، والشفاه متورمة

بالتجاديف ، والأفواه مملوءة لعنة . واذا ما كانت نظرات الأبرار كصبح جديد مشرق فان نظرات الأشرار الهالكين كليل آخر أنقض على دياجير الظلمة. اذا ما استيقظ رجل وجلس على جانب سريره مريضا مرتعبا بعد ليلة قضاها في الفجور والدعارة فقد يرى أفاعي تزحف عليه أو أبالسة يرقصون أمامه ، فكيف يكون إحساس رجل يستيقظ من فراشه في آخر يوم له على الأرض ويستعرض الماضي المثقل بأثامه وخطاياه ! أقول انه بدلا من أن يرى مصادر رعب خيالية أمامه يرى مخاوف حقيقية وفزعا وويلات قيامة الدينونة .

فأختر بين القيامتين .. أني أضع أمامك في اسم الله جسمين القائمين ، الواحد بهي ممجد" على صورة المسيح والآخر محطم متعب جهنمي . وها أنا أستودعك لرب القيامة . هيا توكل على نعمته فلا يكون الموت لك إلا خادما اسود يفتح الباب والقبر ، لا يكون بك سوى غرفة ملابس تغير فيها ثيابك للمجد الابدي.

منقولة مع التنقيح والتنظيم من كتاب اشهر المواعظ

الرب يستخدم هذه العظة لمجد إسمه.